الفصل الثالث

الموت طريقنا إلى الآخرة

لما كان الموت هو الطريق إلى الآخرة فإني أبدأ بذكره. . .

فاعلم يا أخي: إن الموت أكبر واعظ للناس ولكن القلوب القاسية لا تتعظ وإلا كفى بالموت واعظاً، إن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين قال الله تعالى في محكم تنزيله: **"كلُّ نفسٍ ذائقُة الموت وإنما توفون أجوركم يوّم القيامة فمن زُحْزِحَ عَنِ النار وأُدخِل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا مَتَاعُ الغُرُور"**[27] وقال تعالىَ في محكم تنزيله: **"أينما تكونُوا يُدرِككم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيدةٍ"**[28]

وإن الموت لأمر لا يتطرق إليه شك بل هو أمر مسلَّم به حيث إنه من الأمور المحسوسة المشهورة ومع هذا فإن أكثر الناس عنه غافلون فعلى كل عبدٍ طائعٍ الله موحدٍ له أن يكثر من ذكره وأن يستعد له، وإن ذكر الموت ليهون على الإنسان هموم

([27]) (آل عمران 185)
([28]) (النساء78).

الدنيا ويزهد فيها وقد روي عن أحد كبار مشايخ الموحدين سيدنا الشيخ أبو القاسم نصر بن فتوح رضي الله عنه قوله عندما كان يعظ: **"أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحصّ الذنوب ويزهّد في الدنيا"**

أرأيت يا أخي لو إن إنساناً أراد أن يسافر سفراً طويلاً ألا يتأهب له؟ ويحمل معه الزاد الكافي مخافة أن يجوع في الطريق؟ وإن سفرنا إلى الآخرة لطويل نحتاج فيه إلى الزاد وزادنا في هذا السفر هو تقوى الله سبحانه و تعالى فمن تزود بها نجا وقطع الطريق بسلام ومن لم يتزود بها فقد خاب وخسر.

ورحم الله مَنْ قال:

يامَنْ بدنياه اشتغل قد غرّه طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

فأعلم يا أخي نبهني الله وإياك من رقدة الغافلين أن لكل إنسان أجله الذي قدره الله تعالى له في سابق علمه الأزلي فلا يتقدمه لحظة ولا يتأخره. قال تعالى في محكم تنزيله: "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"(الأعراف34)، وإن أجل

كل إنسان مبهم فلا يعلم حتى يأتيه الموت ولربما جائه الموت على حين غفلة من غير نذير وهو يؤمل في الحياة آمالاً بعيدة فلا تغتر بشبابك وتظن أنه لا يموت إلا الطاعن في السن أو المريض مرضاً عضالاً فكم مات من شباب وكم مات من كهول وكم مات من شيوخ كانوا أطول منك آمالاً في الحياة وأشد حرصاً منك على الدنيا فكم من بانٍ لم يسكن وكم من زارع لم يأكل وكم من خاطب لم يتزوج وكم من مؤلف لم يتم.

فتنبه يا أخي من غفلتك واستيقظ من نومك واعلم إنه لا بد من اليوم الذي تلقاك فيه على فراش المنية وأنت تجود بالروح والأهل والأحباب من حولك يخاطبونك فلا تجيب بل أنت مشغول عنهم بما أنت فيه من شدة الموت وسكراته وتدور عيناك تنظر إليهم نظرة المستغيث وهم يخاطبونك: يا فلان هذا ولدك من حولك هذا أخوك فلان هذا صديقك فلان وكأن في أذنيك وقراً فلا تملك إلا أن تنظر إليهم نظرة المودع الآسف على ما فاته، وما فرط من جنب الله فلا ولد يستطيع رد روحك ولا أخ ولا أم ولا أب ولا زوج ينفعك، ولا مالٌ شقيت بجمعه وأرهقت

نفسك في سبيل الحصول عليه، قال تعالى في محكم تنزيله: "**كلا إذا بلغت التراقي وقيل مَنْ راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق**"[29]

والمعنى أنه إذا بلغت الروح التراقي وهما عظمتان عند نقرة الحلقوم مما يلي الكتفين فإن الإنسان عندها يتيقن فراق الدنيا وفي هذا الحال تكون الروح قد سلبت منها، وأما الذين حوله فإنهم يقولون مَنْ يرقيه حيث كانوا يعتمدون على الرقية في التداوي.

ورحم الله مَنْ قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

وإذا به قد ترك الأهل والأولاد والمال الذي شقي بجمعه ومما يروى أنه لما حضرت أبا بكر الصديق الوفاة كانت عائشة قائمة عند رأسه فنظرت إليه وإذا بروحه تحشرج[30] في صدره فقالت:

([29]) (القيامة31).

([30]) تحشرج: أي تتردد في صدره ولها صوت يعني تقرقع في صدره

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق لها الصدرُ

فنظر إليها وقال: يا بنيتي لا تقولي شعراً ولكن قولي:

"وجاءت سكرة الموت بالحق وذلك ما كنت منه تحيد"

وروى لي[31] الشيخ الطّاهر أبو حسين محمد الحناوي: أن أحد الصّالحين الموحدين كان يمشي في الطريق وإذا سلّم عليه رجل لا يعرفه فقال له: أتعرفني؟ قال: لا؟ قال: أنا ملكُ الموت، فقال له: مرحباً بمن طالت غيبته؟ فقال له ملك الموت: امض إلى حاجتك حتى تقضيها؟ فقال له: "بأمي أنت وأبي ليست لي حاجة إلا أن التقي الله".

فإن العمر مهما طال فإنه يمر وكأنه لحظة وقيل شعراً:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

(31) أي مؤلف هذا الكتاب

ألا ترى يا أخي إلى الإنسان إذا مات وسلب الله تلك الروح من ذلك الجسد كيف يستوحش منه أهله وأحبابه ويريدون الإسراع في تجهيزه ودفنه ثم بعد ذلك كأنه لم يكن في الحياة فعش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى عليه، ومما يروى أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل مقابر المدينة ونادى:

يا أهل القبور: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته تخبرونا بأخباركم أم نخبركم؟ فسمع صوتاً يقول: عليك السلام ورحمة الله وبركاته أخبرنا بما كان بعدنا ؟ قال: أما أزواجكم فقد تزوجت وأما أموالكم فقد قُسِّمت وأما الأولاد فقد حشروا في زمرة اليتامى وأما البناء الذي شيدتم فقد سكنه أعداؤكم فهذا أخبار ما عندنا، فما أخبار ما عندكم؟ فأجابه صوت من أحد القبور قائلاً: قد تمزقت الأكفان وانتثرت الشعور وتقطعت الجلود وسالت الأحداق على الخدود وسالت المناخير بالقيح والصديد، ما قدمناه وجدناه وما خلفناه خسرناه ونحن مرتهنون بالأعمال.